الأزمة وآفاق الحل في فكر مالك بن نبي

بن علي محمد

معهد العلوم الإنسانية والاجتماعية، المركز الجامعي احمد زبانة غليزان

mohamedbenali912@gmail.com

تاريخ الإرسال:2019/03/21؛ تاريخ القبول:11/13/2020

Crisis and prospects of solution in Malek Bennabi thought

BENALI Mohamed

Abstract:

Malek Bennabi (1905-1973) is considered as one of the leading thinkers of civilization, his studies have covered a wide range of issues that punctuate human society. During his career , he directed all his efforts to solve the problems of society within the framework of a comprehensive vision that focuses on the role of psychological liberation from colonialism ,and overcoming the idea of the impossible.because Colonization is not the main reason for the present situation in t he Muslim world, but it is one of the many secondary factors. The primary factor is colonisability, that is, our vulnerability to be colonized. Bennabi has written many books and articles dealing with the issues of Renaissance and the problems of civilization. Creating what can be considered the philosophy of history and human society. And engaged in the concerns of his age, and the problems of his nation in general and its society in particular.

Key words: Culture; Human; Revolution; revolutionary criticism; Efficiency.

ISSN: 1112-7872
E-ISSN: 2600-6162
ص.ص 226 - 247

الملخص:

تعبر كتابات مالك بن نبي(1905ـ1973) عن محاولات جريئة للفت الأنظار للأزمة التي تمرّ بها الأمة الإسلامية، والتي وإن تباينت من قطر لآخر فإنها في المحصلة تعبر عن خروج الإنسان المسلم من دائرة التاريخ، ودخوله مرحلة ما بعد الحضارة، التي تعبّر عن عجز المسلم وتوقفه عن العطاء.

وجّه مالك بن نبي جهوده لتقديم رؤى لحل مشاكل المجتمع العربي الإسلامي في إطار نظرة شاملة، تركز على دور التحرر النفسي من الاستعمار، والتغلب على فكرة المستحيل، لأن الاستعمار في نظره ليس هو السبب الرئيس لوضعية التخلف في العالم الإسلامي، ولكنه أحد العوامل الكثيرة. أما العامل الرئيس فهو القابلية للاستعمار. لا نستغرب تركيز مالك بن نبي على مشكلة الثقافة، لأنها تحتل مرتبة رئيسة في تكوين الفرد وبناء شخصيته، فهي الرحم الذي تنمو فيه أفكاره وتطلعاته، والذي تتحدد فيه قيمته وأهدافه، وهي التي تحقق التوازن في عالم الإنسان الداخلي، وتعلمه كيف ينخرط في الجماعة، ليؤدي دوره من خلالها بشكل متكامل. ونتيجة لهذه الجهود ترك بن نبي عديد المؤلفات والمقالات، التي شكلت في مجملها ما يمكن اعتباره فلسفة للتاريخ والاجتماع العربي الإسلامي عامة، ورؤية لمشاكل أمته بصفة خاصة.

الكلمات المفتاحية: الثقافة؛ الإنسان؛ الثورة؛ النقد الثوري؛ الفاعلية.

بن علي محمد
mohamedbenali912@gmail.com

مقدمة:

ما يزيد عن نصف قرن على رحيل المفكر مالك بن نبي(1905-1973)، ومازلنا لم نبرح تلك الأسئلة التي تصدى لها، أسئلة تنوعت قوالبها، وتوحدت أهدافها ومراميها، لا لشيء سوى أنها تصدت لسؤال النهضة والخروج من مأزق الوضع المأزوم، وضع لم يسلم منه مجال دون أخر.

ومن هنا جاء مشروعه متنوع وثري، ثراء هذا الواقع وتشعباته، بداية من سؤال الإنسان نفسه، مرورا بما يعتريه، وصولا لسؤال الأمة والأخطار التي تتهدد وجودها، إن هي لم تفقه واقعها المأزوم، وتعمل على التصدي بعقلانية لتلك الأخطار، وهنا جاء أسلوبه مركزا على عوامل التقهقر والانحطاط، أي على قوى الجمود داخل الحضارة إلى جانب مقومات النمو والتقدم.

إشكالية البحث:

كيف بلور مالك بن نبي قراءته للواقع العربي الإسلامي المأزوم؟ وما هي الحلول التي طرحها لتجاوز هذه الحالة؟ وهل علاج أزمة العالم العربي الإسلامي واحد رغم اختلاف البنى السياسية والثقافية بين أقطاره؟ كيف نستفيد اليوم من هذه الرؤية بعيدا عن القراءات التمجيدية؟

فرضيات البحث:

انطلاقا من الإشكالية الرئيسية يمكن بلورة الفرضيات التالية:

- استطاع مالك بن نبي بلورة رؤية شاملة للأزمة المركبة التي يعيشها العالم الإسلامي.

ISSN: 1112-7872
E-ISSN: 2600-6162
ص.ص 226 - 247

- الحلول التي اقترحها مالك بن نبي عامة وشاملة
- يمكن استثمار رؤى مالك بن نبي لحل أزماتنا اليوم.

منهجية البحث: انطلاقا من طبيعة موضوع البحث، سوف نركّز على استخدام المنهج التحليلي الاستنباطي، لإبراز أطروحات مالك بن نبي ومنهجه في التصدي لسؤال النهضة وكذا استعراض آرائه حول تجاوز وضع الأزمة.

أهمية البحث: ليس من الترف الفكري العودة بعد نصف قرن لأفكار مالك بن نبي التي استمر في بلورتها طيلة أكثر من ثلاثة عقود، أفكار صاغها في أوضاع تاريخية متباينة، جزؤها الأول يمثل ما كُتب في أثناء الفترة الاستعمارية وجزؤها الثاني كُتب بعد الاستقلال، هذا من جهة ، من جهة أخرى لاشك أن كتابات مالك بن نبي تتراوح – كغيره من المفكرين– بين كتابات مرحلة الشباب ومرحلة النضج. ومن هنا كان علينا تتبع هذه التمفصلات التاريخية التي تُأثر ولا شك على رؤى مالك بن نبي لمشكلات مجتمعه، وكيفية التصدي لها. ونحن إذ نعود من خلال بحثنا هذا لأفكار بن نبي فذلك راجع لسببين رئيسيين:

- الأزمة المركبة التي تصدى لها مالك بن نبي مازالت تراوح مكانها، بل وازدادت تفاقما(تخلف وتخبط في على أكثر من صعيد)
- الرؤية الاستشرافية التي بلورها مالك بن نبي، والحلول التي اقترحا، ما يزال الكثير منها صالح لم يتجاوزه الزمن رغم مرور السنين.

علما أن أفكار مالك بن نبي كانت موضوعا للعديد من الدراسات والأبحاث، حيث استطعنا الوقوف على أكثر من 100 بحث تنوعت بين

رسائل ماجستير ودكتوراه داخل الوطن وخارجه(انظر الرابط في أخر البحث) وعلى سبيل الاستئناس نذكر:

- مفهوم التبعية عند مالك بن نبي، رسالة ماجستير، علوم سياسية وعلاقات دولية. إعداد سلوى بن جديد(1994-1995)، معهد العلوم السياسية جامعة الجزائر

- مشكلة المنهج في كتابات مالك بن نبي، رسالة ماجستير، في الفلسفة، إعداد يحياوي محمد(1991-1992)، قسم الفلسفة، جامعة الجزائر

1ـ ماهية الأزمة وسياقها:

الأزمة عند مالك بن نبي تعبر عن «حالة قلق، يسودها الشعور بالخطر، سواء كان هذا الخطر واقعيا أم مجرد فكرة خامرت العقول...وأول ما يكون من اثر هذه الحالة في نفس الفرد، أنها تحرمه الشعور بالاستقرار، بما يعتريه ويسيطر على مشاعره من قلق، لا يمكن دفعه إلا بتغيير الوضع، بتغيير الأشياء، بالوقوف أمام الحوادث لتوجيهها لغايات واضحة». وهي مرادفة للصعوبات، التي تعترض مجتمع ما في سيره نحو التقدم، وتشكل بذلك مشاكله التي ينبغي عليه التعامل معها.وهي (الأزمة) في البلاد الإسلامية أزمة حضارية مرتبطة بالركود والاستكانة التي أصبحت الميزة الأساسية للإنسان المتوطّن فيها، والذي عزف عن الحركة وقعد عن السير في ركب التاريخ، وصار خارج دورة الحضارة»(مالك بن نبي، 136:1979). بحيث فقد الإنسان رغبته في العمل وقدرته على الإبداع، وفقد مركّب الحضارة (الإنسان، الوقت والتراب) تجانسه وأضحى مجرة عناصر ساكنة تفتقد لحرارة الإبداع، ولم يكن هذا التقهقر وليد لحظة

ISSN: 1112-7872
E-ISSN: 2600-6162
ص.ص 226 - 247

فجائية، بل هو محصلة تراكمات كانت بدايتها- حسب مالك بن نبي- واقعة صفين« وكان ذلك الانفصال يحتوي في داخله جميع أنواع التمزق، والتناقضات السياسية المقبلة في العالم الإسلامي...هذه اللحظة هي نقطة الانكسار في منحى التطور التاريخي»(مالك بن نبي، 36:1986). حيث فقد الإنسان همّته وعجز عن استغلال مواهبه فتحللت بذلك الحياة الاجتماعية، معلنة نهاية الدورة الحضارية للأمة الإسلامية بسقوط دولة الموحدين، وهاجرت الحضارة لأيادي أخرى طبقا لمركب حضاري جديد، معلنة بداية ظهور إنسان ما بعد الموحدين، الحامل لجميع أعراض مرض المجتمع الإسلامي منذ ذلك التاريخ إلى يومنا هذا.

هذا التوصيف والتشخيص الذي قدّمه مالك بن نبي لأعطاب العالم الإسلامي جعله يعترف بأن المشكلة معقدة والأزمة مستفحلة، تتطلب تحديد نقطة الانطلاق في مشروع إعادة تأهيل إنسان ما بعد الحضارة للعودة لدورة الحضارة من جديد، فكيف سيكون ذلك؟

1ـ2ـ مالك بن نبي وتفكيك سؤال الأزمة:

يجب التأكيد بداية أنه لا يمكن تفكيك سؤال الوضع المأزوم وفق رؤية مالك بن نبي إلا في ضوء رؤية شمولية حاول بلورتها، لتشخيص الداء وتتبع مكامن الخلل من جهة، ومن ثمّ إعطاء الحلول المناسبة لهذه المعضلة. من هنا نجده يطرح سؤال الأزمة وفق منظور شمولي يجعل من الصعوبات التي نمرّ بها دليل على مشاكلنا وأمراضنا الاجتماعية، التي لا مناص من مواجهتها وفق مقاربة تأخذ في الحسبان الربط بين عوالم ثلاثة (عالم الأشخاص، عالم الأفكار وعالم الأشياء)، كون الصعوبات التي نعانيها تعبر

عن أزمة نمو ناشئة إما«من خلل في عالم الأشخاص، وإما أنها تنشأ من خلل في عالم الأفكار، وإما أنها تنشأ من خلل في عالم الأشياء، وإما أنها تنشأ من خلل في علاقات هذه العوالم بعضها ببعض»(مالك بن نبي، 22:1979).

من هذا المنطلق لا نستغرب تركيز مالك بن نبي على مشكلة الثقافة، لأنها تحتل مرتبة رئيسة في تكوين الفرد وبناء شخصيته، فهي الرحم الذي تنمو فيه أفكاره وتطلعاته والذي تتحدد فيه قيمته وأهدافه.وهي التي تحقق التوازن في عالم الإنسان الداخلي، وهي التي تعلمه كيف ينخرط في الجماعة، ليؤدي دوره من خلالها بشكل متكامل، فالثقافة تنمّي الجانب المعنوي في الإنسان والمجتمع بمستوى متوازن، كما ينمو الكائن الحي بكل أعضائه في وقت واحد.

واعتبارا من هذه الأهمية، يرى بن نبي أنه يجب على الثقافة «أن تتولى الدفاع عن تراثها، وذلك بأن تصنع أولا بين الجسم الاجتماعي والفرد ذلك التبادل الذي يقوّم الأخطاء، من حيثما أتت ومهما يكن مصدرها، إلا أن هذه المبادلة لا يمكن أن تمارس إلا إذا تم ربط الفرد بالجسم الاجتماعي، ودور الثقافة إنما يتمثل على وجه الدقّة في خلق هذه اللحمة الاجتماعية أولا وبالذات»(حوراني اسعد، 214:1984) حتى تبدأ عملية البناء. فالثقافة باعتبارها مصدر لوجوه السلوك ليست مقصورة على صنف اجتماعي معين، ولكنها تشمل جميع الطبقات الاجتماعية، فالبيئة تعد إذن بمثابة الرحم بالنسبة إلى القيم الثقافية...فهي بيئة تمارس مفعولها على الراعي وعلى العالم سواء، وهي الوسط الذي يتشكل داخله الكيان

ISSN: 1112-7872
E-ISSN: 2600-6162
ص.ص 226 - 247

النفسي للفرد، بنفس الصورة التي يتم بها تشكل كيانه العضوي داخل المجال الحيوي الذي ينظمه، فـ«الفرد منذ ولادته في عالم من الأفكار والأشياء، يعتبر معها في حوار دائم، فالمحيط الداخلي الذي ينام الإنسان في ثناياه ويصحو، والصورة التي تجري عليها حياتنا اليومية، تكون في الحقيقة إطارنا الثقافي الذي يخاطب كل تفصيل فيه روحنا بلغة ملغّزة، ولكن سرعان ما تصبح بعض عبارتها مفهومة لنا ولمعاصرينا، عندما تفسرها لنا ظروف استثنائية، تتصل مرة واحدة بعالم الأفكار وعالم الأشياء وعالم العناصر»(مالك بن نبي، 1984: 54)، فالبلدان بأفكارها الصالحة والطالحة، تشبه ـ فيما يرى بن نبي ـ الجسد المريض يوصف الدواء له، وحتى لو تشابه المرض أحيانا، لا يمكن استعمال الدواء نفسه، قبل أن تدرس باقي خصائص الجسم وأمراضه الأخرى، وهذا يستدعي أن يكون لكل بلد أفكاره.

1ـ3ـ التردي الاجتماعي:

يرى بن نبي أن المجتمع العربي الإسلامي يعيش أزمة مركبة، حيث «أصبح يعاني في قيادته أزمة أخلاقية وفكرية، تجعله بصفة عامة لا يحقق للأفكار ثبوت حصانتها وفعاليتها فيه، إما لضعف أخلاقي يحيط بها، وإما لضعف فكري يخذلها.غير أننا إذا فحصنا هذه الحالةـ يقول بن نبي- على ضوء تجربة طويلة فسوف نجد أن الضعف الفكري هو أقوى العوامل تأييدا ومساعدة لمساعي الاستعمار في جبهة الصراع الفكري»(حوراني اسعد، 1984:139)، فـ«الأنا» لم تستوعب الحقائق بعد، ومعظمها لازال يغشاه الظلام، الذي يغشى الحقائق التي لم يكتسبها، ولم تهضمها تجربتنا،

لأنها لم تصل بعد إلى إدراكنا، وفي مثل هذه الملابسات، يرى بن نبي أن دائرة الأفكار تكون معرضة إلى تحدي الاستعمار ومؤامراته، دون أن تستطيع الرد اللازم عليه بالثقافة، التي هي محيط فكري يتحرك فيه الإنسان، مؤثرا ومتأثرا.

من هنا لم يكن اهتمام مالك بن نبي بمشكلة الثقافة وليد الصدفة، بل كان ناتج عن تزايد الحاجة لمجابهة التحديات «لأن الثقافة هي التي تهيئ المناخ الصحي، اجتماعيا وتربويا، لكي تتقوّم فيها ذات الإنسان الفرد، وعندها سيكون هذا الإنسان الجديد صانع الحضارة في المستقبل، ففي حل مشكلة الثقافة، حل لمشكلة السياسة، لأن فساد الحكومات في نظر مالك بن نبي، مؤشر دال على فساد ذات الإنسان في المجتمعات التي تتولاها هذه الحكومات»(حوراني اسعد، 207:1984)، فالحكومات «مهما كانت، ما هي إلا آلة اجتماعية تتغير تبعا للوسط الذي تعيش فيه وتتنوع معه، فإذا كان الوسط نظيفا حرا، فما تستطيع الحكومة أن تواجهه بما ليس فيه، وإذا الوسط كان متسما بالقابلية إلى الاستعمار، فلابد أن تكون حكومته استعمارية» (مالك بن نبي، 30:1979).

من هذه الملاحظة الاجتماعية يستنتج بن نبي «أن الاستعمار ليس من عبث السياسيين، ولا من أفعالهم، بل هو من النفس ذاتها، التي تقبل ذل الاستعمار، والتي تُمَكنْ له في أرضها»(مالك بن نبي، 31:1979).ولا سبيل للخروج من هذا المأزق سوى السعي لخوض معركة التحرر الفكري، فإذا كانت الأعمال هي الوجه التطبيقي للأفكار، فان التحرر

ISSN: 1112-7872
E-ISSN: 2600-6162
ص.ص 226 - 247

الفكري والإعداد للجو الثقافي المستقل هو طريق تقويم الأعمال، لأنه إذ صلحت الأعمال يصلح البناء.

وعليه يكمن مفتاح الخروج من هذا المأزق ـ حسب مالك بن نبي ـ في تحديد المنهاج المناسب، وصياغة الجو الثقافي المحصن من الزيغ والضلال، لأن الواقع السابق دلّ على «أن الفكر السياسي الحديث في العالم الإسلامي هو في ذاته عنصر متنافر، فهو اقتباس لا يتفق وحالة ذلك العالم، والمسلمون في هذا الميدان أو في غيره من الميادين لم ينقبوا عن وسائل لنهضتهم، بل اكتفوا بحاجات قلدّوا فيها غيرهم، وأشكال جوفاء إلاّ من الهواء، بينما ليست حاجتنا أن نجمّع العناصر لنكوّن منها تلفيقا، وإنما نوجد بواسطة منهج يقوم على التحليل، العناصر الأساسية التي تسهم في خلق تركيب حضاري قائم على: الإنسان والتراب والوقت» (مالك بن نبي، 1986:97).

2ـ مطلب الاستقلال الثقافي عند بن نبي:

2ـ1ـ جدلية العالم الثقافي:

يتحدد منطلق التفكير عند ابن نبي على قاعدة التمايز والاستقلال الثقافي، فهو لا يرى في التعريفات المطروحة للثقافة –سواء ما عبر عن وجهة النظر الغربية أو الماركسية– ما يدعو إلى الاعتراض، وليس نقصها راجعاً إلى خطأ فيها، وإنما لأن مضمونها لا يمكن أن يعطينا مفتاح حل المشكلة في الظروف النفسية والزمنية للمجتمعات العربية والإسلامية، لأن المجتمع الذي لا يصنع أفكاره الرئيسية، لا يمكنه أن يصنع المنتجات الضرورية لتصنيعه، ولا يمكن لمجتمع في عهد التشييد، أن يتشّيد بالأفكار

المستوردة أو المسلّطة عليه من الخارج. لذاعلينا أن نستعيد أصالتنا الفكرية واستقلالنا في ميدان الأفكار، حتى نحقق بذلك استقلالنا الاقتصادي والسياسي، لأن السياسة والاقتصاد هما التطبيق العلمي للفكر السائد، فإذا كان الفكر مستوردا من مدارس الاستعمار فإنه من البديهي أن يكون الخادم الأمين لمصالحه. فالمنطق الحضاري، وتجارب الشعوب تدل على أن «الثقافة لا تستورد بنقلها من مكان إلى آخر، بل يجب إبداعها في عين المكان، لأن البيئة ليست إحدى لوحات الرسم، التي نفكها من مسمار الجدار الذي علقت عليه أول مرة، لكي ننقلها إلى منزلنا...إن البيئة تقدم لنا عناصرها على صورة متراكمة وغير منظمة، لهذا يتعين علينا أن نقوم بترتيب عناصرها، لكي ندرج احتشادها ضمن إطار موحد»(حوراني، 210:1984).

من هنا يرى بن نبي أن المخرج المطلوب من الأزمة التي يتخبط فيها العالم الإسلامي، يكمن في استعادة وهج الروح القرآنية، التي فقدت أثرها العلمي في حياة العرب والمسلمين، لأنهم انفصلوا عنها في حالة ركود وجمود أو في حالة تقليد لمادية أوروبية. فالثقافة ـ بما تتضمنه من فكرة دينية ـ ليست في نظر بن نبي علما يتعلمه الإنسان،«بل هي محيط يحيط به، وإطار يتحرك داخله، يغذي الحضارة في أحشائه، فهي الوسط الذي تتكون فيه جميع خصائص المجتمع المتحضر، وتتشكل فيه كل جزئية من جزئياته تبعا للغاية العليا التي رسمها المجتمع لنفسه» (مالك بن نبي، 89:1979)، بما في ذلك الحدّاد والفنان والراعي والعالم والإمام. وعلى الأخص إذا كانت الثقافة هي الجسر الذي يعبره المجتمع إلى الرقي

ISSN: 1112-7872
E-ISSN: 2600-6162
ص.ص 226 - 247

والتمدن، فإنها أيضا ذلك الحاجز الذي يحفظ بعض أفراده من السقوط من فوق الجسر إلى الهاوية. وهو بهذه الفكرة لا يدعو للتقوقع، بل يدعو للنّدية وفق منطق الحوار وفتح المجال أمام حوار الحضارات، وتنظيم العلاقات بينها، ليس كأجزاء بأخذ جانب وترك آخر، وإنما الحوار الكلي وتبادل التجارب والخبرات.

ينطلق بن نبي من فكرة مركزية مفادها أن عالم الثقافة عالم متحرك، له حياته، وله وتاريخه، وهو عالم مبني على مقاييس ثابتة تتداخل لتشكل بنيته، وعليه «فإن خصائص العمل على الصعيد الفردي أو الجماعي تستند على العلاقات الداخلية بين مقاييسه الثابتة في العالم الثقافي: الأشياء –الأشخاص– الأفكار، هذه المقاييس الثابتة تتداخل في نشاط المجتمع عبر جدلية تاريخية تتوافق مع مرحلته التاريخية في كل لحظة من مسيراته. وتتوافق في كل لحظة فيها علاقة معينة؛ بين الأشياء والأشخاص والأفكار في تركيب العمل» (مالك بن نبي، 76:1988). إلاّ أن تكون هنالك لحظات تحدد علاقة أكثر خصوصية، يزيد فيها ثقل أحد هذه المقاييس على المقاييس الأخرى؛ عندما يكون النشاط مركزا على الأشياء وعلى الأشخاص وعلى الأفكار بصورة أكثر خصوصية.

تطرح المشكلة كما يرى بن نبي من وجهة النظر العلمية، وبشكل عام، عندما يتمحور عالم الثقافة حول الأشياء، وتحتل الأشياء القّمة في سلم القيم، وتتحول ـ خلسة ـ الأحكام النوعية إلى أحكام نوعية كمية، دون أن يشعر أصحاب تلك الأحكام بانزلاقهم نحو الشيئية، أي نحو تقويم الأمور بسلم الأشياء.

يعالج مالك بن نبي مشكلة طغيان نزعة التشيء على أكثر من صعيد، نفسيا وأخلاقيا واجتماعيا، وفكريا وسياسيا. وعلى سبيل المثال ـ لا الحصر ـ نذكر رأيه في طغيانها على الصعيد الأخلاقي، «عندما يتجسد المثل الأعلى في شخص ما(أنظر التعليق1)، هناك خطر مزدوج، فسائر أخطاء الشخص ينعكس ضررها على المجتمع، الذي جسد في شخصه مثله الأعلى، وسائر انحرافات ذلك الشخص تترصد كذلك في خسائر، وتكون هذه الخسارة إما في رفض للمثال الأعلى الذي سقط، وإما في ردّة حقيقية يعتقد عبرها إمكانية التعويض عن الإحباط باعتناق مثل آخر، وفي كلا الحالتين فنحن نستبدل دون أن ندري مشكلة الأشخاص بمشكلة الأفكار» (مالك بن نبي، 79:1988)

2ـ2ـ ضرورة الثورة الثقافية:

يؤكد مالك بن نبي على فكرة أساسية، وهي أن السياسة ليست هي الميدان الوحيد للثورة، لأن أي تغيير لم يعن بتغيير الإنسان، لن يكتب له النجاح، والإنسان «لا يمكنه أن يغير شيئا في الخارج ان لم يغير شيئا في نفسه»(مالك بن نبي، 59:1991)، والتغيرات الثورية تصبح حلما من الأحلام إذا لم تقم على هذا الشرط، فتحويل سلطة سياسية من أيدي إلى أخرى، وإعادة تنظيم الإدارة...وتغيير العملة وتعديل النظام الاقتصادي، كلها «أمور تدخل في نطاق الظاهرة الثورية...إلا أن هذه التغيرات تصبح مجرد سحر للأبصار ولا يستقر أمرها إذا لم يتغير الإنسان نفسه» (مالك بن نبي، 51:2002)، ففي الاجتهاد ثورة على التقليد، وفي الجهاد ثورة على الاستسلام، وفي التجديد ثورة على الجمود، وفي الإبداع ثورة على

ISSN: 1112-7872
E-ISSN: 2600-6162
ص.ص 226 - 247

المحاكاة، وفي التقدم ثورة على الرجعية والاستبداد، وفي العقلانية ثورة على بلادة النصوصيين.

ولنجاح ذلك ينبغي «أن نركز منطقنا الاجتماعي والسياسي والثقافي على القيام بالواجب، أكثر من تركيزنا على الرغبة في نيل الحقوق، لأن كل فرد بطبيعته تواق إلى نيل الحق، ونفور من القيام بالواجب، بل ينبغي على مثقفينا وسياسيينا ومن يمثل كل سلطة، أن يوجهوا الهمم إلى الواجب» (مالك بن نبي، 30:1979)، فليس الشعب بحاجة إلى أن نتكلم عن حقوقه وحريته، بل أن نحدد له الوسائل التي يحصل بها عليها، وهذه الوسائل لا يمكن إلا أن تكون تعبيرا عن واجباته. والنتيجة «أن كل سياسة تقوم على طلب الحقوق ليست إلا ضربا من الهرج والفوضى...فالسياسة التي لا تحدث الشعب عن واجباته، وتكتفي بأن تضرب له على نغمة حقوقه، ليست سياسة، وإنما هي خرافة، أو هي تلصص في الظلام»(مالك بن نبي، 143:2002).

إن حالة الأزمة التي يتخبط فيها المجتمع لا تعود إلى قلة لإمكانيات بقدر ما تعود لحالة نفسية سيطرت على الذوات، ومن هنا وجب النظر في شروط الفعالية في المجتمع؟

أ ـ حصول التغيير:

المقصود تغيير الإنسان، فالإنسان إذا لم يتغير بطريقة جذرية، من حيث سلوكه وأفكاره، ونمط حياته واستهلاكه لا يمكنه تغيير أي شيء في الخارج. وهنا يستشهد مالك بن نبي بالثورة التي أحدثها الإسلام في البيئة العربية قائلا: «إن الثورة الإسلامية تقدم لنا أولا درسا عاليا ربما زهدنا فيه

أو تناسيناه في ضبط السلوك...فالثورة ليست كإحدى الحروب تدور رحاها مع العدد والعتاد، بل إنها تعتمد على الروح والعقيدة» (مالك بن نبي،15:2002).

إن التغيير نشاط إنساني يمكن أن ينحرف عن أهداف الثّورة، إذا لم تُحكم الوسيلة بشروط أخلاقية وإيمانية صارمة، فالإسلام كان ثورة كبيرة غيرت وجهة التاريخ البشري، ببناءاته الأخلاقية والثقافية والسياسية والاجتماعية في المجتمع الجاهلي، بل حتى أسماء معتنقيه ،حيث كان المرء يُقْدم مباشرة بعد إسلامه على تغيير اسمه، رغم ما يعزّ في النفس من ذلك.

ب ـ طبيعة التغيير: يعني به مالك بن نبي الكيفية التي يكون عليها وبها التغيير، حتى لا ينقلب إلى مجرد تهريج يفقد أهدافه، ولهذا يؤكد على: «أننا إذا لم نحفظ في عقولنا وقلوبنا مقدمات ومسلمات الثورة، فلن نفقد (عقالا) فقط بل نفقد الروح الثوري ذاته. فالثورة قد تتغير إلى (لا ثورة) بل قد تصبح (ضد الثورة)» (مالك بن نبي،16:2002)، لأن « الثّورة في سعيها هذا لتقويض ما هو كائن، باسم ما يجب ويمكن أن يكون، لا تلبث أن تصطدم بالعديد من حقائق ذاك الواقع المرفوض، تلك الحقائق التي عليها تمثلها أولا، وبعمق، كشرط لتجاوزها ولتجاوز الواقع المستند إليه.» (البخاري حمانة،2012: 44). وعليه ينبغي للثورة ـ لتفادي الإبهام ـ رسم إطار واضح لموضوع التغيير، بعيدا عن الغموض والضبابية.

جـ ـ النقد الثوري: إن عملية النقد أمر لا مفر منه، «فالثورة حين تخشى أخطاءها ليست بثورة، وإذا هي اكتشفت خطأ من أخطائها ثم التفتت عنه

ISSN: 1112-7872
E-ISSN: 2600-6162
ص.ص 226 - 247

فالأمر أدهى وأمر. وفي هذا الصدد يذكر قول ماركس: يجب دائما أن نكشف الفضيحة عندما نكتشفها حتى لا تلتهمنا. يقول مالك بن نبي: «إن لكل ثورة منهجا، يتضمن المبادئ التي تسير عليها، كما يتضمن فحوى القرارات التي ستمليها عليها ظروف الطريق» (مالك بن نبي،16:2002). ولهذا يرى أنه من الضروري مرافقة ومراقبة مرحلة ما بعد الثورة وعدم الاكتفاء بدفع عجلة الثورة.

3ـ الأزمة من التعقيد للتعقيل...أو كيف نستثمر رؤى مالك بن نبي:

تختلف المشاكل التي تعاني منها الإنسانية، باختلاف البيئات، فالإنسانية لا تعاني مشكلة واحدة، بل مشاكل متنوعة، تبعا لتنوع مراحل التاريخ، ومشكلة البلاد الإسلامية (وبخاصة الجزائر)، مشكلة إنسان عزف عن الحركة، وقعد عن السير في ركب التاريخ، ولذلك هو بحاجة لإعادة تأهيل وتوجيه نحو الهدف المنشود، وفكرة التوجيه هذه لا تخرج عن كونها «قوة في الأساس، وتوافق في السير، ووحدة في الهدف، فكم من طاقات وقوى لم تستخدم...وكم من طاقات وقوى ضاعت فلم تحقق هدفها، حين زاحمتها قوى أخرى، صادرة عن نفس المصدر، متجهة إلى نفس الهدف! فالتوجيه هو تجنب هذا الإسراف في الجهد وفي الوقت. فهناك ملايين السواعد العاملة، والعقول المفكرة في البلاد الإسلامية، صالحة لأن تستخدم في كل وقت، والمهم هو أن ندير هذا الجهاز الهائل، المكَّون من ملايين السواعد والعقول، في أحسن ظروفه الزمنية، والإنتاجية، المناسبة لكل عضو من أعضائه» (مالك بن نبي،78:1979).

بن علي محمد
mohamedbenali912@gmail.com

إن للحضارة ثلاثة عناصر :«إنسان، تراب، وقت، إلا أن أهم هذه العناصر هو الإنسان، فهو الذي بيده مفتاح الحركة والانطلاقة الحضارية، وبداخله تبدأ الحركة والتغيير، قبل أن تخرج خارج ذاته، لتطبق وتعمم في محيطه المكاني وإطاره الزماني. لذلك يرى بن نبي أنه حَريّ ببلدان العالم الثالث الثورة على أوضاعها، ثورة ثقافية تذلل مصاعبها وتكسر عُقدها وتزيح العراقيل ولا سيما النفسية، التي تعترض طريق نهضتها، حيث تتمتع مجتمعاتها بسلطان اجتماعي يمثله الإنسان والأرض والزمان، وهي العناصر المتاحة له دائماً، على خلاف سلطان المال الذي لا يملكه دائماً، والذي هو سبب تكبيل تحركاته دائما» (مالك بن نبي،39:1987).

«إن محاولات الاستنهاض والتقدم بالنسبة إلى العالم الإسلامي، ليست قضية إمكانٍ ماليٍ، بقدر ما هي تعبئة للطاقات الاجتماعية، أي الإنسان والتراب والوقت، في مشروع تحركه إرادة حضارية لا تحجم أمام الصعوبات، ولا يأخذها الغرور في شبه تعالٍ على الوسائل البسيطة التي في حوزتنا منذ الآن، ولا ينتظر العمل بها حفنة من العملة الصعبة، فالإمكان الاجتماعي هو من يقرر مصير الشعوب والمجتمعات والدول» (مالك بن نبي،73:1987).

يتفرد ابن نبي في بيان ما هو أخطر وأشد في عملية إضعاف المسلمين، ألا وهو القابلية للاستعمار، «لأنها عامل داخلي في نفوسنا، حيث نتقبل كل ما يطلقه المستعمر علينا بدون وعي وإدراك منا، فما يطلقه من مصطلحات ضدنا نتقبلها ونرددها، على أساس أنها من المسلمات الصحيحة، وما يصفه لنا نعتبره صحيحاً وجيداً، حيث نقيس أنفسنا بمقياسه، وذلك نتيجة

ISSN: 1112-7872
E-ISSN: 2600-6162
ص.ص 226 - 247

الضعف في شخصيتنا الفكرية والنفسية، فنحن نخدمه باستغلاله لما في أنفسنا من استعداد لخدمته، فنفوسنا معلولة من باطنها، بها معوّق داخلي يمسكها عن التقدم، ونحط من قيمة أنفسنا بأنفسنا، فنحن مسخّرون لهم، بحيث أصبحنا أبواقاً يتحدث من خلالها، وأقلاماً يكتب بها، ومسخرين له بعلمه وجهلنا»(مالك بن نبي،145:1979)، «فالاستعمار يراقب حركة الأفكار، فكل ما يمر في العالم الإسلامي من أفكار يهمه بصفة خاصة، بقدر ما يهمه البترول، بل أكثر من ذلك بكثير وهو يراقب حركتها باهتمام بالغ، وله فلسفته الخاصة إلتى تتمثل في التخلص من الأفكار التي تضايقه، وفي الانحراف بها عن مراميها، بتوجيهها خارج المدار الذي أراد أصحابها استبقاءها فيه» (مالك بن نبي،155:1979).

وما لم يحدث التحرر الثقافي من العوائق النفسية التي كبلت الفرد، فإنه لا جدوى من الدفع بالبرامج والمشاريع الاقتصادية للواجهة، لأن شعوبنا التي «تعيش نتائج صدمة ثقافية تحرمها من حرية التصرف في أكثر من ميدان... يجب عليها أن تكتشف قدرتها الحقيقية، التي لا توجد على محور القدرة المالية، ولكن على محور القدرة الاجتماعية.

وطالما لم تقم البلدان المعنية بهذه الخطوة من أجل تحرّرها النفسي - الثقافي، فإن تحرّرها الاقتصادي يصعب أو يستحيل»(مالك بن نبي،192:2002).

إن تجاوز الأزمة المركبة التي تتخبط فيها الجزائر خصوصا، وبلدان العالم الثالث عموما لا يكون إلا عبر المرور بطريق الاستثمار الاجتماعي وفق معادلة حضارية تجعل من الإنسان حجر الزاوية في كل نهضة

منتظرة، واستثمار عاملي **الوقت والتراب** أفضل استغلال، فحينما تكون قيمة الأمة مرتفعة يكون التراب غالي القيمة، وعندما تكون الأمة متخلفة يكون التراب رخيص،«فالعمل لازم لزوم دراسة طبيعة الأرض والمناخ... لن نستطيع أن ننقذ ذريتنا من الأجيال القادمة إلا بالعمل الشاق، وعندما تتحقق تلك المعجزة بانتصارنا على أنفسنا، وعلى أهوال الطبيعة فإننا سوف نرى أية رسالة في التاريخ نحن منتدبون إليها، لأننا نكون قد شرعنا في بناء حياة جديدة، ابتدأت بالجهود الجماعية بدل الجهود الفردية، ولسوف تظهر أمامنا بعد ذلك أعمال جليلة خطيرة، ولكنها سوف لا تخيفنا، لأن شعبنا أخضع التراب، ومهد فيه لحضارته»(مالك بن نبي، 136،135:1979) انطلاقا من رؤية تدرك معنى الوقت وقيمته، لأن إدراك معنى الزمن يحدد معنى التأثير والإنتاج، إذا دخل في تكوين الفكرة والنشاط، «فالحياة والتاريخ خاضعان للتوقيت الذي كان وما يزال يفوتنا قطارهما، فنحن في حاجة ملحة إلى توقيت دقيق، وخطوات واسعة لكي نعوّض تأخرنا» (مالك بن نبي،140:1979).

الخاتمة:

في خاتمة هذه المساهمة نخلص إلي ما يلي:

ان أزمة العالم الإسلامي أزمة حضارية تعود بجذورها إلى حقبة صدر الإسلام إلى ان بلغت ذروتها معلنة نهاية الدورة الحضارية للأمة الإسلامية مع إنسان ما بعد الموحدين الذي تجمعت فيه كل أمراض الحضارة، ومازالت منذ ذلك التاريخ تمدنا بقيّم الإفلاس الخلقي والاجتماعي والسياسي والاقتصادي..الخ

ISSN: 1112-7872
E-ISSN: 2600-6162
ص.ص 226 - 247

إن مشكلة التراجع الرهيب الذي بلغه العالم الإسلامي مشكلة نفسية ثقافية بالدرجة الأولى، مشكلة إنسان استكان، وتوقف عن مسايرة عجلة التاريخ نتيجة لعوامل ذاتية داخلية وأخرى خارجية ناتجة عنها بالأساس، فما أشار إليه مالك بن نبي وهو يتحدث عن غياب الفعالية والركون والاستكانة، والإيمان بالخرافة وانتظار الرجل الخارق- المنقذ، ليس من فعل الاستعمار وحده، بل هو راجع في الأساس لحالة نفسية، استحال معها الموائمة بين الإنسان وقدراته وحسن استغلاله لعامل الوقت واستثماره لخيرات بلده، فلجأ لأسهل الحلول وأصبح يجري وراء هذا النموذج التنموي أو ذاك، ناسيا أن الإقلاع الحضاري يبدأ من الداخل، من ذواتنا ومن تركيبتها النفسية الشعورية، التي سيطرت عليها عوامل كبلت انطلاقتها، والتي ينبغي أن تتغير نحو قيم أكثر ايجابية، ومن دون هذه الرؤية يبقى التخبط هو السمة الرئيسية لمجتمعاتنا، حتى ولو نهجنا منهجا من المناهج الناجحة في العالم اليوم. وما فشل جميع البرامج والمخططات التنموية في مرحلة ما بعد الاستقلال، سوى دليل على فشلنا في إعادة تأهيل الإنسان أولا، وإعادته لدورة الحضارة التي سلبت منه.

من هنا تظهر أهمية أفكار مالك بن نبي وراهنتيها في الكثير من جوانبها، فالمشكل لم يعد مشكل إمكانيات مادية(البلاد الإسلامية في غالبها حباها الله بخيرات مادية استنزفت في مشاريع وهمية ونخرها الفساد) بقدر ما هو مشكل تنفيذ برامج بإنسان متحلل مسلوب قيميا وحضاريا، ومن هنا تعتبر عملية إعادة تهيئة الإنسان مطلبا ملحا في حد ذاته حتى نضمن فاعليته ويصبح إنسانا قابلا للقيام بمهمته التاريخية.

التعليقات:

1) فكرة الزعيم في المخيال الجمعي، ليست فكرة خاصة بالحضارة الإسلامية وحدها، بل هي فكرة ضاربة بجذورها في الحضارات الشرقية القديمة، التي كانت تأله الحاكم وتجعل كل ما ينطق بها يشبه بالوحي، الذي لا يجب أن يناقش، واستمر حضور الفكرة بتمظهرات مختلفة، عرف الفكر الإسلامي بعض تجلياتها من خلال كتابات» الآداب السلطانية»، عند الماوردي والفارابي وغيرهم، ويبقى خطر الفكرة يدور حول وجود طبقات أو حاشية منتفعة من هذه الهالة، التي عادة ما تصبغها الحاشية على الزعيم للمحافظة على امتيازاتها ونفوذها، ومهما اختلفت حقب التاريخ تبقى هذه الممارسات تحتل موقعها، خاصة في حضن الأنظمة الشمولية للمزيد حول الفكرة **انظر**: محمد الجويلي،(1992)، **الزعيم السياسي في المخيال الإسلامي بين المقدس والمدنس**، تونس: المؤسسة الوطنية للنشر العلمي. **وانظر كذلك**: إمام عبد الفتاح إمام،(2001). **الأخلاق والسياسة**.(د،ط) مصر: المجلس الأعلى للثقافة.

* مراجع البحث:

1-المصادر:

ـ مالك بن نبي، (1984). **مذكرات شاهد القرن**، القسم الأول، ط2، دمشق، سوريا: دار الفكر.

ـ مالك بن نبي، (1979). **تأملات**، ط1، دمشق: دار الفكر.

ـ مالك بن نبي، (1984). **مشكلة الثقافة**، ط4، ترجمة عبد الصبور شاهين، دمشق، سوريا: دار الفكر.

ـ مالك بن نبي، (1979). **شروط النهضة**، ترجمة عبد الصابور شاهين وعمر مسقاوي، دمشق، سوريا: دار الفكر.

ـ مالك بن نبي، (1988). **مشكلة الأفكار في العالم الإسلامي**، ط1، دمشق، سوريا: دار الفكر.

ـ مالك بن نبي، (2002). **بين الرشاد والتيه**، ط2، دمشق، سوريا: دار الفكر.

ـ مالك بن نبي، (1987). **المسلم في عالم الاقتصاد**، ط2، دمشق، سوريا: دار الفكر.

ـ مالك بن نبي، (1995). **من اجل التغيير**، دمشق، سوريا: دار الفكر.

– مالك بن نبي،(1986). **وجهة العالم الإسلامي**، ط5، ترجمة عبد الصبور شاهين، دمشق: دار الفكر.

– مالك بن نبي،(1991). **دور المسلم ورسالته في الثلث الأخير من القرن العشرين**، ط1، ترجمة عبد الصبور شاهين، دمشق، سوريا: دار الفكر.

2- المراجع:

ـ اسعد حوراني، (1984). **مالك بن نبي مفكرا مصلحا**، ط1، بيروت، لبنان: درا النفائس.

ـ البخاري حمانة، (2012). **فلسفة الثورة الجزائرية**، وهران: ابن النديم للنشر والتوزيع. بيروت: دار الروافد الثقافيةـ ناشرون.

- للاطلاع على أهم الرسائل الجامعية والمؤلفات التي تناولت جوانب من فكر مالك بن نبي انظر الرابط:
https://univ-batna.academia.edu/feloussimessaoud

للإحالة على هذا المقال:

ـ بن علي محمد، (2020)، «الأزمة وآفاق الحل في فكر مالك بن نبي». **المواقف**، المجلد: 16، العدد: 04، ديسمبر 2020، ص. ص 226– 247.

بن علي محمد
mohamedbenali912@gmail.com